الشيخ يوسف البحراني وكتاب الحدائق الناضرة

(1107 – 1186) هـ

اعداد

الشيخ جَوَاد الفرطوسي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لا يخفى على المتتبع لعلماء الطائفة والنظر فيما بذلوه من جهد على مدى سنين أعمارهم وما تركوه من أسفار تغذي من ينهل من علومهم المتفرعة على علوم أهل البيت (ع) ما لهم من علو شأن وايمان وإخلاص وأتباع للحق والسير نحوالله تبارك وتعالى ، والابتعاد عن التعصب والاهواء الشخصية ، وممن يقف المرء له أجلالا واحتراما العالم الرباني الفقيه المحدث الشيخ يوسف البحراني (قده) المعروف بصاحب الحدائق . الذي لازال ويبقى ذكره في مجالس العلم والعلماء، وها نحن اليوم نتعطر بذكره والتعرف عليه وعلى ما عرف به من منهج عام وفي اشهر كتبه وهو(الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة) بشكل مختصر والله الموفق .

نبذة تعريفية مختصرة لفقيهنا المحدث الشيخ يوسف البحراني (قده):

الشيخ يوسف البحراني، هو يوسف بن أحمد بن إبراهيم البحراني الدرازي (1107 ـــ 1186 هـ)، فقيه ومحدث شيعي. اشتهر بـ"صاحب الحدائق" انتساباً لأثره (الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة)، ويُعدّ من أبرز العلماء المدافعين عن النحلة الإخبارية الفقهية والحديثية، وكذلك آخر شخصية جديرة بالذكر من أصحاب

هذه النحلة. ناظر بعض الاجتهاديين المعاصرين له -كما ذكر هو في المقدمة الثانية عشرة للحدائق- وقام بتفصيل الكلام حول هذه المناظرات في كتابه المسائل الشيرازية، وقد كان يتمتع بقريحة شعرية، وله شعر في الإمام الحسين (ع).

نشأته

ولد في سنة 1107 هـ في قرية ما حوز جنوب غرب المنامة في البحرين، لكن أصله من قرية دراز – على بعد فرسخين ونصف جنوبي المنامة – وكان والده عالماً انتقل للإقامة في ما حوز وتتلمّذ على يد المحقق البحراني. أمضى الشيخ مرحلة طفولته تحت إشراف جدّه الشيخ إبراهيم، الذي كان يعمل في تجارة اللؤلؤ، وجعل للحفيد معلمٌ لـلقرآن وتعليم الكتابة في المنزل، ثم بعد ذلك لازم الدرس عند والده.[1] ثم التزم أبوه – الذي كان على مسلك المجتهدين ومخالفاً بشدة للإخباريين – بتربيته العلمية.[2]

حياته

تزامنت حياة الشيخ يوسف البحراني مع أحداث مهمة، جعلته دائم الانتقال من مدينة إلى أخرى. في بداية طفولته عايش الحروب القبلية بين قبيلتي الهولة والعتوب. كما دارت حروب بين القوات العمانية والإيرانية، أيضاً عاصر الشيخ أيام سقوط الحكومة الصفوية وانقراضها في إيران.[3]

---

[1] - البحراني، لؤلؤة البحرين، ص 442.
[2] - البحراني، لؤلؤة البحرين، ص 100 - 101.
[3] - البحراني، الحدائق الناضرة، ج 1، ص و.

رحلاته

في البداية هاجرت أسرته إلى القطيف، على إثر الهجمات المتتالية لسلطان عُمان على البحرين، وبقي هو في البحرين، لكنه بعد السيطرة الكاملة للمهاجمين واحتراق منزل العائلة، التحق بهم، وبوفاة الوالد، تولّى مسؤولية رعايتها. وبقي في القطيف لمدة سنتين، تتلمذ خلالها على يد الشيخ حسين الماحوزي (م 1181 هـ) الفقيه المجتهد والمعارض العلنيّ لـلنهج الإخباري.[1] بعد المصالحة بين حكومتي إيران وسلطنة عمان وتحرير البحرين، عاد إلى الموطن ودرس عند العلماء هناك لعدة سنوات. وأخيراً بعد عودته من فريضة الحج وتوقفه في القطيف اضطر أن يسافر إلى إيران بسبب الضغوط المالية، واضطراب الأوضاع الداخلية في البحرين وذلك بعد سقوط الصفوية وكذلك مقتل السلطان الصفوي سنة 1140 هـ.[2] بعد إقامته القصيرة في مدينة كرمان، سافر البحراني إلى شيراز التي حظي فيها باحترام حاكمها محمد تقي خان وتكريمه له، فتمكن من قضاء عدة سنوات مستقرة وهادئة اشتغل فيها بالتدريس والتأليف وتأدية المهام الدينية.[3]

اضطربت أوضاع شيراز الداخلية هذه المرة بسبب تمرد محمد تقي خان على نادر شاه، فاجتيحت المدينة وانتشر الوباء فيها في العامين 1156 و1157 هـ، فتوجه الشيخ إلى قصبة فسا آنذاك، حيث أكرمه حاكمها، وحظي فيها أيضاً بالطمأنينة

[1] - البحراني، الدرر النجفية، ج 1، ص 16.
[2] - البحراني، الحدائق الناضرة، ج 1، ص و
[3] - البحراني، الحدائق الناضرة، ج 1، ص و.

وراحة البال، وبقي فيها لمدة قضاها في التأليف والتحقيق، وبالزراعة لتحصيل الرزق. لكن ما لبث أن هاجم المدينة عليمردان سنة 1165 هـ[1] وقتل حاكمها، وتعرضت المدينة للنهب، فذهب ممتلكات الشيخ وكتبه أدراج الرياح، فهاجر إلى منطقة اصطهبانات، ومن ثم إلى كربلاء ولبث بها إلى آخر عمره. يحتمل أن يكون قدومه إلى كربلاء قبل سنة 1169 هـ.[2]

دراسته

اهتم البحراني بالتأليف والتصنيف وإعداد الطلبة وتدوين أجوبة الاستفسارات الدينية، وغير ذلك من النشاطات العلمية الدينية، رغم كل الظروف التي أحاطت به وساقته إلى رحلات متعددة، وقد نال إجازة الحديث من أساتذته ومن أربعة من مشايخ الحديث منهم: المولى رفيعا الجيلاني (م 1160 هـ) الذي كان لديه إجازة من المجلسي، ويوصل البحراني إلى المجلسي بعلو الإسناد.[3] لقد أثنى معظم كتاب التراجم المتأخرين، على مكانته في الفقه والحديث، وأشاروا إلى كثرة تتبعه وذاكرته القوية وزهده على الرغم من انتقادهم لمنهجه العلمي،

[1] - الفسائي، فارسنامه ناصري ، ج 1، ص 590
[2] - البحراني، الحدائق الناضرة، ج 1، ص و - ط.
[3] - النوري، مستدرك الوسائل، الخاتمة ج 2، ص 104.

كما وصفوا آثاره العلمية بأنها مثمرة ومفيدة. **من هؤلاء الكتّاب:**

أبو علي المازندراني الحائري في منتهى المقال،[1] والنوري في خاتمة مستدرك الوسائل،[2] والأمين في أعيان الشيعة.[3]

فقد كان كما ذكر هو في المقدمة الثانية عشرة للحدائق من المدافعين الجديين عن الإخباريين في البداية، وناظر بعض الاجتهاديين المعاصرين له، وقد فصّل الكلام حول هذا الموضوع في كتابه المسائل الشيرازية. لكنه رأى في أثناء تأليف الحدائق أي تصنيف أو تقسيم للعلماء الشيعة بعيداً عن الصواب، وانتقد الملّا محمد أمين الأستر آبادي (م 1033 هـ) الذي كان البادئ بهذا التصنيف، والتعرض للمجتهدين.[4]

أساتذته

درس البحراني لدى جدّه الشيخ إبراهيم ووالده الشيخ أحمد والماحوزي والأخيرَين كانا مجتهدَين معارضَين للنحلة الإخبارية، الشيخ حسين الماحوزي الشيخ أحمد بن عبد الله البلادي (م 1148 هـ) الشيخ عبد الله بن علي.[5]

---

[1] - المازندراني، منتهى المقال، ج 7، ص 74.
[2] - النوري، مستدرك الوسائل، الخاتمة ج 2، ص 65.
[3] - الأمين، أعيان الشيعة، ج 10، ص 317.
[4] - البحراني، لؤلؤة البحرين، ص، 117 - 118.
[5] - البحراني، الحدائق الناضرة، ج 1، ص ك.

تلاميذه

لم يدون عدد تلامذته وأسماءهم في كتابه خلال إقامته في شيراز؛ لكن أسماء مجموعة من العلماء الكبار الذين حضروا دروسه في كربلاء معروفة، وأشهرهم:[1]

المولى محمد مهدي النراقي ، السيد بحر العلوم ،أبو علي الحائري،الميرزا مهدي الخراساني الميرزا مهدي الشهرستاني ، الميرزا أبو القاسم القمي ،السيد علي الطباطبائي (صاحب الرياض) ،الشيخ أحمد بن محمد ، الشيخ حسين بن محمد . كان المترجم فضلاً عن مقامه العلمي من مشايخ الحديث، وقد اتصل العديد من كبار مشايخهم في الأدوار اللاحقة، من طريقه بسلسلة الإجازات. ومن الذين نالوا إجازة الحديث عن البحراني، إلى جانب معظم تلاميذه، يمكن الإشارة إلى:

السيد عبد الله البحراني ، المولى محمد مهدي الفتوني ، الشيخ سليمان بن معتوق العامليالشيخ حسين بن محمد المشهور بـــآل عصفور ، الشيخ خلف بن عبد علي . والاثنان الأخيران هما ابنا أخ البحراني، قد كتب لؤلؤة البحرين في الإجازة لقرّتي العين كإجازة لهما.[2]

[1] - البحراني، الكشكول، ج 1، ص 6.
[2] - البحراني، الحدائق الناضرة، ج 1، ص ن.

مؤلفاته

يتجاوز عدد آثار البحراني العلمية الأربعين، بين مؤلف مستقل وجواب مكتوب عن الأسئلة، وما كتبه حاشية وتعليقة على كتب غيره؛ ومعظم هذه الآثار في الحديث والكلام والفقه، وكما يقول هو نفسه في اللؤلؤة .[1]ونقله المازندراني الحائري في منتهى المقال، فإن بعض كتاباته ومنها أجوبة المسائل الشيرازية، قد فقد في حادثة نهب بيته في فسا.[2]

أهم كتبه سواء من حيث المضمون والمحتوى أو من حيث الموضوع هي[3]

الحدائق الناضرة؛ مجموعة في الفقه الاستدلالي، بدأ بتأليفها في فسا وأكملها في كربلاء. قام تلميذه، وابن أخيه، الشيخ حسين بن محمد، بتدوين ما بقي من مباحث الحدائق في كتاب أسماه: عيون الحقائق الناظرة في تتميم الحدائق الناضرة.

الدرر النجفية من الملتقطات اليوسفية؛ حول مبادئ الاستنباط الفقهي وقواعده على أساس الأحاديث.

لؤلؤة البحرين؛ وهو من المصادر المعتبرة للتراجم وعلم الرجال وذكر في هذا الكتاب بالتفصيل العلماء بدءاً من معاصريه حتى زمان الكليني وابن بابويه.

---

[1] - - البحراني، يوسف بن أحمد، لؤلؤة البحرين، ص 445 - 448

[2] - المازندراني، منتهى المقال، ج 7، ص 77.

[3] - البحراني، الحدائق الناضرة، ج 1، ص ق.

الصوارم الصاعقة لظهور الجامعين بين ولد فاطمة (ع).

جليس الحاضر وأنيس المسافر (أو؛ جليس المسافر وأنيس الحاضر) متنوع المواضيع، كتبه تكريماً لابنه وقد اشتهر باسم الكشكول. ورسائله المستقلة؛

رسالة في نقد آراء الفيض الكاشاني في بحث الماء القليل.

رسالة في نقد نظرية المير داماد في مسألة الرضاع.

رسالة في رفض التصوف بعنوان النفحات الملكوتية.

رسالة في نقد ابن أبي الحديد (شارح نهج البلاغة) باسم **سلاسل الحديد في تقييد ابن أبي الحديد.**

وفي جانب **الأدب والشعر له قصيدتان** يشكو إلى إخوانه صروف الدهر، وله تخميس لقصيدة مطولة، وله قصيدة في مدح الإمام علي (ع) حين زاره سنة 1156 هـ، [1] ومن شعره في واقعة الطف:

[1] - شبر، أدب الطف، ج 6، ص 16.

وأعد عليّ حديث وقعة نينوى ... ولواعج الأشجان في ساحاتهـــــــــــــــــــــا

الله أية وقعـــــــــــــــــــــــــــــة

لمحمـــــــــــــــــــــــــــــد ... في كربلا أربت على وقعاتهـــــــــــــــــــــــــــــا

نفسي لآل محمد في كـــــــــــــــــــــــربلا ... محروقة الأحشاء من كرباتهـــــــــــــــــــــــــا

نفســـي لزينب والسبايا ...

حسرا تبكي ومنظرها إلى أخواتها [1]

وفاته

توفي الشيخ يوسف سنة 1186 هـ في كربلاء إثر مرض الطاعون ودفن في العتبة الحسينية، وتحديدا في الحائر الحسيني عند رجلي الشهداء [2] بعد أن صلّى عليه العالم الإخباري الوحيد البهبهاني بناءً على وصيته.[3]

[1] - شبر، أدب الطف، ج 6، ص 12-13.
[2] --شبر، أدب الطف، ج 6، ص 16.
[3] - دواني، الأغا محمد باقر بن محمد أكمل الأصفهاني، ص 124

أخباري معتدل

البحراني هو أحد أبرز العلماء المدافعين عن النحلة الإخبارية الفقهية والحديثية، وآخر شخصية جديرة بالذكر من أصحاب هذه النحلة العلمية، كانت له مناظرات في كربلاء مع وحيد البهبهاني، المعاصر له، المخالف للإخباريين، ويقال أن تلك المناظرات قد أثّرت في تغيير آرائه، والمحتمل أن تكون ساهمت في خفوت المنهج الإخباري ورواج المذهب الأصولي نظراً لمكانته العلمية لدى الإخباريين. [1]

كان يعتقد أن الميل إلى النهج الاجتهادي أو الاعتماد على المنهج الإخباري لطالما وجدا بين الفقهاء، ولكن أياً من الطرفين لم يلجأ إلى التجريح بالآخر أبداً. خاصة وأن عدداً من المجتهدين كالشيخين المفيد والطوسي كانا على رأي الإخباريين في بعض المسائل، وبعض المحدثين كـــالصدوق كانت له آراء توافق مرام المجتهدين.[2]

كذلك يوضح البحراني منهجه في التعامل مع الأحاديث، الذي يعده المنهج الوسطي (طريقاً وسطى) وطريقة العلامة المجلسي، ويصرّح بصحة كتب الحديث المعتبرة – وليس بجميع الأحاديث المنسوبة إلى المعصوم فيها – كـــالكتب الأربعة وبحار الأنوار ومعاني الأخبار والخصال وكذلك الفقه الرضوي، لاعتماد المحدثين الكبار

[1] - الجناتي، تغلب الاجتهاد على الإخبارية، ص 4 - 5، 11 - 14.
[2] - البحراني، الحدائق الناضرة، ج 1، ص ي.

بها. كذلك ينتقد في المقدمة الثالثة للكتاب، الآراء المغالية لعدد من الإخباريين، وعجزهم عن فهم مقاصد القرآن، ويؤيد رأي الشيخ الطوسي في تقسيم الآيات القرآنية بحسب الدلالة على المقصود.[1] كذلك يوضح في سائر المقدمات مبانيه الأصولية في الاستنباط الفقهي، التي تدل على منهجه المعتدل وعدم قبوله لآراء الإخباريين كلها بقضّها وقضيضها، في الوقت نفسه يشير إلى مخالفة رأيه للنحلة الاجتهادية. والدليل على ذلك علاقاته بالوحيد البهبهاني في أثناء إقامته في كربلاء وتصريحه بمقامه العلمي وعدالته – مع أن البهبهاني كان يهاجم بشدة مشرب الإخباريين الذين كان لهم حضور فاعل في العراق في تلك الآونة لاسيما في حوزتي النجف وكربلاء العلميتين،[2]حتى أنه كان ينتقد البحراني شخصياً بشكل صريح.[3] وهناك من يحتمل أيضاً بأنّ البحراني قد ابتعد عن ميله الإخباري بعد محاورة البهبهاني، وسعى من خلال تأييده للبهبهاني إلى تقوية الاجتهاديين وتضعيف الإخباريين قد يكون تكريم البهبهاني له، بعد وفاته والحضور الحاشد للناس والعلماء في مراسم تشييعه، على الرغم من انخفاض عدد سكان المدينة بسبب الطاعون، مؤيداً لهذا الاحتمال.[4] كان المترجم قد ترك النهج الإخباري منذ مدة، وفقاً لـــلمامقاني، ولهذا أقدم بطيب خاطر وبناءً على طلب البهبهاني، بالتخلي له عن كرسي درسه لعدة أيام، ابتعد بعدها معظم تلاميذ البحراني عن الهوى

[1] - البحراني، الحدائق الناضرة، ج 1، ص 27.
[2] - البحراني، لؤلؤة البحرين، ص 290
[3] - البحراني، الدرر النجفية، ج 1، ص 20.
[4] - البحراني، سلاسل الحديد، ج 1، ص 3.

الإخباري متأثرين باستدلالات البهبهاني المقنعة. مع كل ذلك، لم يُنقل عنه أو عن تلاميذه أو معاصريه تصريح واضح حول اعتزاله الكامل للمذهب الإخباري.[1]

من أقوال العلماء في حقه:

1- قال عنه السيد موسى المازندراني في كتابه العقد المنير: ((... فقيه ، أصولي محدث ، رجالي ، من أكابر علماء الشيعة الأمامية)) .

2- قال عنه الشيخ محمد الأنصاري في كتابه الموسوعة الفقهية الميسرة: ((... من فقهاء الأمامية ووجهائهم ، و كان ورعا مخلصا سليم النفس ، وعلى طريقة الأخبار بين ...)) .

3- قال عنه السيد محسن الأمين في كتابه أعيان الشيعة: ((من أفاضل علمائنا المتأخرين جيد الذهن معتدل السليقة بارع في الفقه والحديث وكان على طريقة الاخباريين ...)) .

4- قال عنه تلميذه الشيخ أبو علي الحائري: ((عالم فاضل متبحر ماهر متتبع محدث ورع عابد صدوق دين ، من أجلة مشايخنا وأفاضل علمائنا المتبحرين ...)) .

[1] - الأمين، أعيان الشيعة، ج 10، ص 317

5- قال عنه الشيخ أسد الله التستري في مقابسه: ((العالم العامل المحقق كامل ، المحدث الفقيه ، المتكلم الوجيه ، خلاصة الأفاضل الكرام ، وعمدة الأماثل العظام ، الحاوي من الورع والتقوى أقصاهما ، ومن الزهد والعبادة أسناهما ، ومن الفضل والسعادة أعلاهما ، ومن المكارم والمزايا أغلاهما ، الرضي الزكي التقي النقي ، المشتهر فضله في أقطار الأمصار وأكناف البراري ، المؤيد بعواطف ألطاف الباري)) .

6- قال عنه المحقق الخوانساري صاحب الروضات: ((العالم الرباني والعامل الإنساني شيخنا الأفقه الأوحد الأحوط الأضبط ، صاحب الحدائق الناضرة ... وغير ذلك من التصانيف الفاخرة الباهرة التي تلذ بمطالعتها النفس ، وتقر بملاحظتها العين ، لم يعهد مثله من بين علماء هذه الفرقة الناجية في التخلق بأكثر المكارم الزاهية ، من سلامة الجنبة ، واستقامة الدربة ، وجودة السليقة ومتانة الطريقة ، ورعاية الاخلاص في العلم والعمل ، والتخلي بصفات طبقاتنا الأول ، والتخلي عن رذائل طباع الخلف الطالبين للمناصب والدول)) .

7- قال عن صاحب نجوم السماء: ((... من العلماء المتأخرين ، والكمل المحدثين ، والفقهاء المتبحرين ، وأعاظم أصحاب الدين ، وأرباب الانصاف والاعتدال بين طريقتي الأصوليين والإخباريين)) .

8- قال عنه العلامة الأميني في شهداء الفضيلة: ((فقيه الطائفة ومحدثها الكبير ... وكتابه (الحدائق) الدائر السائر بين الفقهاء ينم عن غزارة علم مؤلفه وتضلعه في العلوم وتبحره في الفقه والحديث ...)) .

9- قال عنه العلامة القمي في الفوائد الرضوية: ((هو الشيخ العالم العابد العامل ، والمحدث الورع الكامل ، الفاضل المتبحر الجليل ، المتتبع الماهر النبيل ، مرجع الفقهاء الأعلام ، وفقيه أهل البيت عليهم السلام ، عالم رباني ، وفقيه بحراني ، صاحب التصانيف الرائقة النافعة الجامعة ...)) .

البحرين عبر التاريخ تمثل مركز اشعاع فكري في المنطقة :

يُعد الشيخ يوسف بن أحمد العصفور البحراني (المتوفى سنة 1186هـ/ 1772م) أحد أصفى العقول البحرينية في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، ومن أهم الشخصيات الفقهية في المدرسة الأمامية، فلقد كان صاحب ذهن وشخصية متعددة المواهب والقابليات، وقد ترك العديد من المؤلفات التي تكشف عن غزارة علم، ويد طولى في علوم الفقه والرجال والتاريخ .

إن حياة الشيخ يوسف حياةٌ حافلةٌ بالعطاء العلمي، وقد عاش قرناً مضطرباً من الناحيتين السياسية والاجتماعية، لكن ذلك لم يمنعه من مواصلة مشروعه العلمي. وقد رفد المكتبة الإسلامية بذخائر تعدّ اليوم من نفائس التراث الاسلامي الذي

يكشف عن روح ذلك العصر. ويبقى على البحرينيين أن ينفضوا غبار الإهمال عن هذا التراث العلمي العريق للتصدي لمحاولات التشويه والعبث بالذاكرة التاريخية.[1]

المحدث الجامع للمدرستين:

في كتابه الحدائق حاول المحدث البحراني رحمه الله فض النزاع ــ من الخارج ــ بين الإخباريين والأصوليين ، بعد ما رأى أن الإعراض عن الخوض فيه أولى ، ثم يبدو أنه وضع منهجه في الحدائق على هذا الأساس ، وقد أفلح فيه ، ولعل هذا ــ بالإضافة إلى قوته العلمية وتتبعه الروائي ــ جعل كتاب الحدائق حاضرا بقوة في الحوزات العلمية ــ الأصولية ــ ولا يستغني عنه الفقهاء عادة ، إما بالتأييد أو النقد ، فلم يكن رأي صاحب الحدائق بالرأي الذي يسكت عنه أو يعرض عنه !

وكان من الممكن أن يتعمق الصراع إلى حد الانفصال الحقيقي بين المدرستين ، والانقطاع عن بعضهما البعض ، إلا أن المحقق البحراني رحمه الله وضع كتابه الحدائق بنحو يختصر فيه المسافة بين المدرستين ، ويجسّر العلاقة بين الاتجاهين الفقهيين ، وكان قويا في حجته ومستوعبا في تتبعه ، الأمر الذي جعل المدرستين متآخيتين في الاستدلال ، وإن اختلفتا في الاختيارات .. وقد وجدنا تأثيرا مهما

[1] - د. وسام السبع – الوسط البحرينية - العدد 3776 –2013م - بتصرف .

لصاحب الحدائق في عدد من المجتهدين الأصوليين المتأخرين بعده، وهذا يحتاج إلى بحث خاص وتتبع .

كما أنه حاول أن يستحضر مشتركات المدرستين الأساسية ، ويعوم الاختلافات إلى حد أنه يجعلها مثل اختلافات علماء كل مدرسة ، بل احيانا حتى تعدد آراء العالم نفسه بحسب كتبه وفترته الزمنية .

قال البحراني : كنت في أول الأمر ممن ينتصر لمذهب الإخباريين ، وقد أكثرت البحث فيه مع بعض المجتهدين من مشايخنا المعاصرين ، وأودعت كتابي الموسوم بالمسائل الشيرازية مقالة مبسوطة مشتملة على جملة من الأبحاث الشافية والأخبار الكافية تدل على ذلك وتؤيد ما هنالك . إلا أن الذي ظهر لي بعد اعطاء التأمل حقه في المقام وامعان النظر في كلام علمائنا الأعلام هو اغماض النظر عن هذا الباب وارخاء الستر دونه والحجاب ، وإن كان قد فتحه أقوام وأوسعوا فيه دائرة النقض والابرام .

(أما أولا) فلاستلزامه القدح في علماء الطرفين والازراء بفضلاء الجانبين كما قد طعن به كل من علماء الطرفين على الآخر ، بل ربما انجر القدح في الدين سيما من الخصوم المعاندين ، كما شنع به عليهم الشيعة من انقسام مذهبهم إلى المذاهب الأربعة ، بل شنع به كل منهم على الآخر أيضا .

(وأما ثانيا) فلأن ما ذكروه في وجوه الفرق بينهما جله بل كله عند التأمل لا يثمر فرقا في المقام).. ثم شرع في توجيه نقاط الاجتماع وكيف أن ما ذكر من الفروق ليس عاما ، فأنت تجد الشيخ الصدوق وهو معدود في طليعة الإخباريين يوافق الأصوليين في تثنية المسائل ، بينما ثلّث الشيخان المفيد والطوسي ــ وهما من فقهاء المجتهدين ــ المسائل مثلما ذهب إليه الإخباريون .. وهكذا.[1] ، [2]

المحقق البحراني والهمة العالية :

الذي ينظر إلى حياة الشيخ يوسف بدقة ، يرى أنه حجة على غيره من أهل العلم ، فالظروف التي مر بها لو مر بها غيره من ذوي الهمم الفاترة ، لكان في زوايا الهموم نسيا منسيا ، بينما لم تمنعه تلك الأحوال الصعبة

قال الطباطبائي : والظروف السيئة عن التأليف لمجموعة كبيرة ومهمة من الكتب المفيدة، كان أبرزها كتاب الحدائق الناضرة، ويتعجب المتأمل من هذا العزم، والتركيز الذي حظي به، مع كل تلك الهجرات، والسفرات، والخوف والجوع ونقص الأموال،والتهديد بالقتل!

فمنذ بعد بلوغه الخامسة بدأت الحروب بين القبائل المتنازعة في البحرين ، والتي لم تهدأ حتى قام العمانيون بالهجوم على البحرين ، وقد تعاضد الطمع وحب

[1] - البحراني، الشيخ يوسف: الحدائق الناضرة – 1 / 167
[2] - ينظر من اعلام الامامية – فوزي ال سيف 202

الاستحواذ والاحتلال مع توجهات طائفية للمهاجمين حيث كان ينتمون إلى مذهب الخوارج ، فاحتلت البحرين بعد معارك سفكت فيها الدماء ، وسلبت الأموال ، وأحرقت المساكن واضطر وجهاء البلد إلى الهجرة عنها بعيالهم ، وكان والد الشيخ يوسف من جملة من جلا عنها إلى القطيف ، بينما أبقى ابنه في البحرين لحراسة البيت والمحافظة على الكتب ..وكان يرسل الكتب إليه بالتدريج في ظروف صعبة .

حاول والده الشيخ أحمد العودة بأهله إلى البحرين غير أن تجدد المشاكل فيها والتي جرت إلى إحراق منزله وما كان فيه ، جعله يمرض ويموت الوالد بعد شهرين .. موصيا إياه أن لا يترك أهله .فبقي في القطيف سنتين درس فيها على يد الشيخ حسين الماحوزي واستفاد منه ، وبعد هدوء الوضع في البحرين رجع إليها وبقي فيها خمس سنين يدرس لدي الشيخ البلادي .

* سافر بعد ذلك إلى شيراز حيث أكرمه حاكمها ، وأقام عنده صلاة الجمعة وكان يفتي ويرشد إلى أن اضطربت الأمور فسافر منها إلى بعض أطرافها (فسا) واشتغل بتأليف الحدائق وكان يعمل في الزراعة بيده ، ثم حصلت اضطرابات هناك بثورة بعض أشرارها هناك ، وكانت النتيجة الهجوم على بيت الشيخ البحراني وإتلاف أمواله ومنها كتبه ، حيث قال:

وأعظم حسرة أضنت فؤادي .. تفرق ما بملكي من كتاب .

لقد ضاقت علي الأرض طرا .. وسد علي منها كل باب

طوتني النائبات وكنت نارا .. على علم بها طي الكتاب

والذي سلم كان ما بدأه في الحدائق ..فانتقل منها إلى اصطهبانات ..فلم يطب له المقام فيها ، فهاجر إلى كربلاء (حوالي 1169 هـ) حيث استقر بجوار الإمام الحسين عليه السلام ، وأكمل تأليف الحدائق وغيرها من الكتب النافعة .[1]، [2]

حول كتاب الحدائق

قال الطبطبائي : أن الكتاب بنفسه وبشهرته الطائلة وصيته الطائر غني عن ان نحوم حوله فضلا عن الإسهاب في الاطراء، أضف الى ذلك ما يؤثر عن أعلام الأمة وفقهائها من عقود ذهبية وجمل عسجدية وكلم خالدة في الثناء عليه، وسيوافيك شذور من كلماتهم، فهو كتاب جامع مبسوط لم يعمل مثله في بابه في كتب الأصحاب قبله، وقد عمله مؤلفه لكي يغني رواد الفقه عن سبر غيره من كتب الفقه والحديث والاستدلال ولا بدع، فإنه أول مجموعة فقهية ومدونة كبرى في الفرائض والسنن تحوي جل الفروع ان لم يكن كلها، وتضم في طيها الأقوال والآراء وأصول الدلائل، وحوت بين دفتيها جميع ما ورد من الأحاديث عن

[1] - من اعلام الامامية – فوزي ال سيف 202

[2] - ينظر مقدمة الحدائق ..المحقق السيد عبد العزيز الطباطبائي ص 9

الصادع الكريم وأئمة العترة الطاهرة- صلوات الله وسلامه عليه وعليهم- في الأحكام الشرعية، وقد انبرى لكلمات الفقهاء وما فهموه من الروايات فأفتوا بمؤدى اجتهادهم ونتيجة أنظارهم ومحصل استنباطهم، وافق الشهرة القائمة والإجماع بقسميه أو خالف، ثم ضم الى كل رأي أدلته وأضاف الى كل قول مستنده وما يؤيده ويدعمه، ثم حاول نقاشها بما يمكن أن يورد عليها من نقود ومؤاخذات، فان تم عنده دليل ورأى الشبهة مزيفة ردها وأبطلها، واحكم الدليل وأثبته واختار ما أدى اليه اجتهاده، كأنه يلمسك الحقائق بيده أو ينظر الى الغيب من وراء ستر رقيق،

وبذلك أعجب من تأخر عنه من جهابذة الفقه وصيارفة الفن ومهرته ما وجدوه في طيه من علم غزير، وفضل كثار، وفقاهة ودراية، وتضلع في فنون الحديث، وتبحر في الفقه، وتتبع في الآراء واطلاع على الفتاوى، وحيطة بالأدلة واستقصاء فيها، وخبرة بمعاقد الإجماع وموارد الشهرة، ومقدرة على البحث وقوة في البرهنة، وتثبت في الحكم، وتعمق في التفكير، ونضج في الرأي، وما هنالك من دقة وتثبت وتحقيق، فان قال فقول فصل، وان احتج فبرهنة صادقة، وان صدع فبالحق الصراح، وان جنح فالى الحقيقة الراهنة، فهو حين يفيض الحجج فكالسيل المنحدر من شاهق، وإذا حل مشكلة فكأن الاشكال لم يطرقها، وإذا دحض شبهة فهي كالريشة في مهب الريح، كل ذلك ببيان سهل وكلام منسجم، وقول جزل

معتضد بالمنطق، فأصبح الكتاب بذلك كله شرعة الوارد، ونجعة الرائد، وبلغة الطالب، ومنية الراغب وطلبة الفقيه، وغاية المحدث، وضالة المجتهد المحقق، فخلد الكتاب لمؤلفه– على صفحة الدهر وغرة الزمن وسجل الخلود– ذكرا لا يبلى وعظمة لا يخلقها مر الجديدين وكان بذلك في الطليعة من ناشري ألوية الفقه، وعاقدي بنوده، ومنظمي صفوفه، وقائدي كتائبه، وسائقي مقانبه، وجامعي شوارده، كما تقدمت جمل الثناء عليه، فمن الحري أن نوقف الباحث على نزر يسير مما جاء حول الكتاب.[1]

الثناء على الحدائق الناضرة :

1– قال المؤلف في اللؤلؤة: وكتابنا هذا– بحمد الله سبحانه– لم يعمل مثله في كتب الأصحاب، ولم يسبق اليه سابق في هذا الباب، لاشتماله على جميع النصوص المتعلقة بكل مسألة. وجميع الأقوال، وجملة الفروع التي ترتبط بكل مسألة، إلا ما زاغ عنه البصر وحاد عنه النظر، الى ان قال رحمه الله: وبالجملة، فإن قصدنا فيه الى ان الناظر فيه لا يحتاج إلى مراجعة غيره من الأخبار ولا كتب الاستدلال، ولهذا صار كتابا كبيرا واسعا كالبحر الزاخر باللؤلؤ الفاخر.

2– وقال تلميذ المؤلف الرجالي الكبير أبو علي الحائري في (منتهى المقال):

[1] - الحدائق الناضرة - مقمة تحقيق السيد عبد العزيز الطباطبائي

هو كتاب جليل لم يعمل مثله جدا، جمع فيه الأقوال والاخبار الواردة عن الأئمة الأطهار.

3- وقال المحقق التستري في المقابس: وله تصانيف كثيرة كأنها الفرائد وتأليف غزيرة أبهى من القلائد: منها- وهو أشهرها- كتاب الحدائق.

4- وقال المحقق الخوانساري في الروضات: صاحب الحدائق الناضرة، والدرر النجفية، ولؤلؤة البحرين، وغير ذلك من التصانيف الفاخرة الباهرة، التي تلذ بمطالعتها النفس، وتقر بملاحظتها العين.

5- وقال مؤلف الدرر البهية: لقد صنف فأكثر، واشتهرت مصنفاته وكتبه لا سيما (الحدائق) فإنه كتاب لم يكن له نظير، ولا ينبئك مثل خبير.

6- وقال مؤلف الروضة البهية: صاحب الحدائق، فهو من أجلاء هذه الطائفة، كثير العلم، حسن التصانيف، نقي الكلام، بصير بالأخبار المروية عن الأئمة المعصومين (صلوات وسلامه عليهم أجمعين) يظهر كمال تتبعه وتبحره في الآثار المروية بالنظر الى كتبه، سيما (الحدائق الناضرة) فإنها حقيق ان تكتب بالنور على صفحات وجنات الحور، وكل من تأخر عنه استفاد من الحدائق الناضرة.

7- وقال شيخنا العلامة النوري: وله تصانيف رائقة نافعة جامعة، أحسنها الحدائق الناضرة، ثم الدرر النجفية.

8- وقال خاتمة المحدثين الشيخ عباس القمي في الفوائد الرضوية: صاحب التصانيف الرائقة النافعة الجامعة التي أحسنها الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، وهو كتاب جليل في الغاية كثير النفع.

9- وقال مؤلف أنوار البدرين: صاحب الحدائق الناضرة وغيره من المصنفات الفاخرة.

10- وقال شيخنا الحجة المحقق الأكبر العلامة الاميني- متعنا الله ببقائه- في شهداء الفضيلة: وكتابه (الحدائق) الدائر السائر بين الفقهاء ينم عن غزارة علم مؤلفه وتضلعه في العلوم وتبحره في الفقه والحديث.

11- وقال العلامة الجليل ابن يوسف الشيرازي في فهرست مكتبة سپهسلار:

كتاب الحدائق من خيرة الكتب الفقهية للشيعة، يجمع بين دفتيه جميع الفتاوى الفقهية وأدلتها من الآيات والاخبار، ولهذا حظي بالقبول من اعلام الأمة وفقهائها بأجمعهم على اختلاف اذواقهم.

12- وقال مترجمة في مقدمة الطبعة الاولى من الحدائق: ومن جملة ما أفرغه في قالب التصنيف وألفه في غاية الأحكام والترصيف، هو كتاب الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، وهو لعمري كتاب حوى ما لم يحوه كتاب، ومؤلف جمع ما لم يجر في خطاب، فصل المسائل فتفضل، وطول الدلائل فتطول، فكم فيها من

ازهار نكات تزري على زهر الروض المطلول. وأنوار أبحاث يخجل عندها نور الربيع وان اتى بالوجه المصقول، وشوامخ معضلات كانت تزل عنها ظفر الطائر فارتقى ذراها بإيراد حججها، وبحار مشكلات كانت تقذف بالبوصي والماهر فشق بسفن التدقيق لججها. فهو كتاب جامع للأدلة والأقوال، حاو للفروع الكثيرة، حسن الترتيب، يشتمل على أبحاث لطيفة ومسائل شريفة. واما جمل الثناء عليه في غضون الكتب الفقهية فكثيرة يعسر استقصاؤها، يعثر عليها المتصفح فيها، فان الكتب الفقهية مشحونة بالنقل من كلماته، ومملوءة بآرائه وحججه، فقد اضحى الكتاب منذ أن أفرغ في قالب التأليف شرعة لوراد الفقه ونجعة لرواده، أكب عليه الفقهاء، وتداولته الأوساط العلم

ية وأنديتها بكل إكبار وإعجاب ولا تكاد تجد فقيها إلا ويأخذ منه ولا كتابا فقهيا إلا وينقل عنه، حتى ان بعضهم كان مغرما به بحيث كان ينقل منه نصف الصفحة والأكثر بنص عباراته في كتابه5 ولشدة اعتدادهم بالكتاب وكثرة مزاولتهم له نرى لهم على الكتاب قيودا وتعاليق، وكتبوا عليه شروحا وحواشي.[1]

[1] - ن.م . السابق

الخاتمة

يحق للمتتبع بعد هذه الجولة الطيبة المختصرة للتعرف على العالم والمرجع الشيخ يوسف البحراني (قده) أن يفخر بعلماء المذهب الجعفري الامامي الذين يبذلون الغالي والنفيس ويسهرون الليالي والايام ويقطعون الفيافي والصحاري والقفار فضلا عن المعاناة الشخصية والالام البدنية والاجتماعية من أجل الوصول الى أقصى حالات التوافق والتطابق مع الارادة الالهية والخلافة الربانية وأتباع خط ونهج المعصومين ع في الحياة الدنيا ومرافقتهم في الاخرة وأداء المسؤولية الملقاة على عاتقهم .

فقد كان بحق عالما محدثا عاملا حرا مؤمنا مخلصا صابرا مشتغلا حتى جاور ربه وجاور سيد الشهداء ابي عبد الله الحسين ع في آخر عمره وفي مثواه .

المصادر:

1- البحراني، لؤلؤة البحرين .

2-البحراني، الحدائق الناضرة، ج 1 .

3- البحراني، الدرر النجفية، ج 1.

4- الفسائي، فارسنامه ناصري ، ج 1 .

5- النوري، مستدرك الوسائل، الخاتمة ج .

6- المازندراني، منتهى المقال، ج 7 .

7- الأمين، أعيان الشيعة، ج 10 .

8- البحراني، الكشكول، ج 1.

9- شبر، أدب الطف، ج 6.

10-دواني، الأغا محمد باقر بن محمد أكمل الأصفهاني.

11-الجناتي، تغلب الاجتهاد على الإخبارية.

12- البحراني، سلاسل الحديد، ج 1.

13- الأمين، أعيان الشيعة، ج 10.

14 - من أعلام الأمامية بين الفقيه العماني وآقا بزرك الطهراني - الشيخ فوزي ال سيف